منشورات مكتب امامة عمان
٦

كيف دخل الانكليز إلى عمان الامامية

أصدره
مكتب
امامة عمان

٢٣ شارع حسن صبرى - الزمالك
ت ٨٠٢٢٨٤
القاهرة

١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م

مطابع دار الكتاب العربى بمصر
محمد حلمى المنياوى

كيف دخل الانجليز الى عمان الامامية

يميل بعض المؤرخين الى الاعتقاد ان أول حضارة عرفتها الجزيرة العربية قد نشأت أول مانشأت فى المنطقة التى يطلق عليها الآن اسم عمان وانه لو أجريت حفريات حديثة اليوم فى هذه المنطقة فليس من المستبعد أن تتكشف عن حقائق تاريخية ذات أهمية ظلت مطمورة آلاف السنين .

غير أن هذا البلد العربى العريق التاريخ والذى قاوم الغزاة والمستبدين من عرب وبرتغاليين وفرس وانكليز وقهرهم ودحر جيوشهم وأجلاهم عن أرض الوطن واحدا أثر الآخر خلال معارك مشهودة ، ان هذا البلد يقع اليوم فى قبضة الاحتلال الاستعمارى الذى استغل أوضاع البلاد الداخلية لبسط سيطرته على عمان معتمدا على تفوقه العسكرى ومناصرة الأذناب له . ومع أن الاستعمار البريطانى لم يقدم على احتلال عمان احتلالا سافرا قبل الآن الا أن صلته وتحرشاته ومؤامراته ودسائسه وأطماعه فى هذا البلد لم

تنقطع لحظة خلال القرنين الماضيين أى منذ تم للانكليز الاستيلاء على الهند .

والحقيقة أنه ما كاد يتوطدحكم البريطانيين فى الهندوتنهار المقاومة الوطنية حتى أخذوا يرنون بأبصارهم الى المناطق المتناثرة حول الهند فى الشمال والغرب .

وطبيعى أن تكون الامبراطورية الناشئة فى حاجة الى خطوط دفاعيةوقواعدعسكرية لحمايتها من الدول الاستعمارية الأخرى المنافسة كهولندا وفرنسا اللتين كان لهما نشاط كبير فى منطقة الخليج الفارسى وجنوب شرقى الجزيرة العربيةحيث تمتد حدود عمان .

وجاءت الخطوة الأولى فى سنة ١٧٩٨ عندما أوفدت حكومة بومباى البريطانية ايرانيا يدعى مهدى على خان أحد عملاء انكلترا العتيدين فى ايران والذى كان يمثلها فى (بوشهر) الى حكومة مسقط للتفاوض مع سلطانها واستطلاع رأيه فى الفرنسيين الذين كانت لهم صلات قديمة بالبلاد . وقد طلب اليه أن يسعى لدى السلطان باقناعه بقطع صلته بالفرنسيين

والكف عن تقديم المساعدات اليهم وان يحصل منه الى جانب ذلك على امتياز خاص لانشاء مصنع بريطانى فى ميناء بندر عباس التى كان يستأجرها السلطان من الحكومة الايرانية . وفى حالة قبول السلطان لهذه المطالب البريطانية الزهيدة! كما وصفها المسئولون البريطانيون فان حكومة الهند سيسنعدها أن تقدم للسلطان طبيبا خاصا يقوم على خدمته .

بهذه العقلية المنحطة كانت انكلترا تساوم الدول الأخرى لتوقعها فى شباكها وتقضى على حريتها وكرامتها .

وشاءت الظروف أن يحالف المبعوث البريطانى الى مسقط النجاح فى مهمته فتوقع اتفاقية بين سلطان مسقط من جهة والمبعوث البريطانى من جهة أخرى تقضى بتعهد سلطان مسقط بالوقوف الى جانب بريطانيا فى أى نزاع دولى وبالغائه لجميع الامتيازات الممنوحة للفرنسيين والهولنديين فى بلاده تجارية كانت أم غير تجارية والامتناع من تقديم أية تسهيلات للسفن الفرنسية وأخيرا وليس آخرا بأن يوافق — اذا رغبت اليه الحكومة البريطانية فى ذلك — على اقامة مصنع بريطانى فى ميناء بندر عباس .

غير أن السلطان الذى وافق على معظم هذه الشروط فى لحظة من لحظات الارتباك عاد فنقضها . رفض رفضا باتا السماح للانكليز بانشاء مصنع لهم فى ميناء بندر عباس بحجة أن منح مثل هذا الامتياز سيورطه فى حرب سافرة مع الهولنديين والفرنسيين كما رفض أيضا الموافقة على تعيين ممثل سياسى للانكليز فى عاصمة سلطنته .

كانت عمان يومئذ تعيش فى فوران داخلى واضطرابات محلية متواصلة ولم تكن اقتصادياتها فى وضع متين . وكانت انكلترا تحيط علما بكل ذلك وكان مجال المساومة واسعا أمامها . وعلى الرغم من اضطراب الأحوال على الساحل العمانى فقد كانت عمان تحتل مركزا بارزا بين دول تلك المنطقة وكانت ليها اليد الطولى فى الشئون السياسية . ولذا أدرك الانكليز منذ البداية أن سيطرتهم السياسية على الساحل العمانى سوف لايدعم نفوذهم فى الهندفحسب وانما فى ايران أيضا وبلاد مابين النهرين من حيث يمكن أن يثبوا الى العراق ثم يتوغلوا فى الشرق الأوسط .

كانت هذه الأطماع فى بلاد الغير تراود الانكليز وتدفعهم الى بذل كل محاولة لايقاع عمان فى شركهم .

ولم يكن رفض السلطان البات للمطالب الاستعمارية التى كانت بطبيعة الحال تتنافى مع السيادة القومية لدولة عمان ليثنى الانكليز عن نواياهم بل ظلوا يواصلون الجهود ويتحينون الفرص ويخلقون المناسبات لتحقيق مآربهم فى عمان .

وفى عام ١٨٠٠ اتخذت محاولتهم شكلا جريئا آخر اذطلبوا الى السرجون مالكولم وكان موفدا من قبلهم الى ايران بأن يعرج فى طريقه على مسقط ليقابل السلطان/ ويتباحث معه فى كيفية تأمين المصالح البريطانية فى تلك البلاد . ويبدو أن الظروف كانت مواتية لهذا المبعوث فما ان تمت المقابلة حتى استكتب السلطان تعهدا جديدا هو بمثابة تأكيد لاتفاقية ١٧٩٨ السابقة . وقد قضت الاتفاقية الجديدة للانكليز بأن يكون لهم ممثل سياسى دائم فى أرض السلطنة . ولم يفت هذا المبعوث أن يمثل مهزلة من مهازل حكومته الاستعمارية فقد اصطحب معه طبيبا بريطانيا يدعى بوجيل وقدمه هدية للسلطان من حكومة بريطانيا . وقد عهد الى هذا الطبيب فيما بعد بتولى منصب الممثل السياسى لبريطانيا فى مسقط .

لقد كان هذا الاتفاق بداية العهد الأسود على عمان وفاتحة

التدخل الأجنبى الذى انتهى اليوم الى دخول جيوش استعمارية وفرض سيطرة أجنبية على شعب عمان .

والواقع أن سلطان مسقط قد اتخذ قرارا نهائيا بالتحالف مع الانكليز رغم مافى ذلك من خطر يهدد سلامة الوطن ويعرض مستقبله للخطر ضاربا عرض الحائط باستنكار الشعب العمانى لهذه الخطوة التى تنتقص من سيادته الوطنية وتخدش كبرياءه القومى وتعرض بلاده للسيطرة الأجنبية . ولكن السلطان لم يأبه بكل ذلك بل أخذ يستسلم استسلاما تدريجيا للانكليز ويمنحهم مطلق الثقة .

ان العمانيين حساسون جدا بطبيعتهم فهم ينفرون من الأجنبى نفورا شديدا ويفضلون أن يعيشوا فى أقسى الظروف الاجتماعية والاقتصادية من أن يخضعوا أو يطأطئوا الرؤوس لسلطان الأجانب . وقد كان تاريخهم حافلا بالوثبات الوطنية والمواقف البطولية التى تجلى فيها عنادهم ومقاومتهم للدخلاء والأجانب والغزاة . ومن هنا فلم يكن من المستغرب أن ينظروا الى تصرف السلطان نظرة السخط والاستنكار . ولقد أدرك الانكليز هذه الحقيقة ولمسوا النفور فى الشعب

والحكومة فاستغلوه أسوأ استغلال وظلوا يدخلون فى روع سلاطين مسقط ان بقائهم على الحكم يتوقف على مدى ارتباطهم بالحكومة البريطانية وتمشيهم مع سياستها .

وما أن علم الفرنسيون باتفاقية عام ١٨٠٠ الموقعة بين سلطان مسقط والحكومة البريطانية حتى ثارت ثائرتهم واعتبروها خروجا من جانب السلطان على تقاليد الصداقة التى كانت تربطهم بحكومته قبل ظهور البريطانيين على مسرح السياسة فى عمان . فأرسلوا وفدا برياسة المسيو دى كافياناك الى مسقط للتفاوض مع السلطان ومحاولة ابرام اتفاق معه على غرار الاتفاق البريطانى . غير أن السلطان رفض التفاوض مع الوفد على أى أساس كما رفض طلب الحكومة الفرنسية بانتداب ممثل سياسى لها فى مسقط أسوة بالممثل الانكليزى . فكان هذا الرفض بمثابة هزيمة ساحقة للدبلوماسية الفرنسية

والثابت أن الانكليز قد لمحوا أكثر من مرة انه اذا استمر سلطان مسقط فى معاكستهم فان حكومة الهند ستفرض حصارا اقتصاديا على سواحل عمان وتحول دون وصول السلع والمواد الغذائية التى كانت تعتمد عمان فى الحصول عليها من الهند .

وهكذا فان المقاطعة الاقتصادية والحصار البحرى والتهدد بالقوة أسلحة ليست جديدة على الاستعمار البريطانى فهو يلجأ اليها كلما وجد من الشعوب مقاومة لأطماعه ورفضا لمطالبه الاستعمارية .

وعندما ولى الحكم سعيد بن سلطان انفتحت أمام البريطانيين فرص أكثر لتقوية نفوذهم وتحقيق مطالبهم من عمان — فقد وجد سعيد نفسه ازاء مشاكل كثيرة لم يحسن التصرف فيها . ولجأ الى خطوات تعسفية ضد الشعب الذى لم يكن يطمئن الى نواياه . وكان شخصا مولعا بالمجد الفردى حتى لو جاء هذا المجد على حساب الشعب .

وقد دفعه طموحه الشخصى وميله الى الاستبداد بالحكم المطلق الى الخروج على تقاليد الحكم العريقة التى عرفتها عمان ونعنى بها تقاليد الامامة والبيعة العلنية والتى على أساسها اضطر العمانيون على موافقة سلاطين البوسعيد سابقا ليتبوءوا كراسى الحكم على أثر زوال دولة اليعاربة العمانية . وهؤلاء اليعاربة هم الذين يرجع اليهم الفضل كله فى طرد البرتغاليين من أراضى عمان وتحرير البلاد من استعمارهم الطويل .

وسوف نقدر مدى الدور الذى لعبه اليعاربة فى تاريخ عمان والتضحيات التى بذلوها فى سبيل تخليص الوطن العمانى من ربقة الاستعمار البرتغالى اذا عرفنا أن البرتغاليين كانوا فى ذلك الوقت يمثلون أعظم قوة عسكرية استعمارية . بيد أن الأحوال الداخلية فى عمان ساءت فى أخريات حكم اليعاربة وسادتها الفوضى مما أضعف سلطان اليعاربة وهيبتهم ومهد السبيل لاستيلاء سلاطين البوسعيد على الحكم أثر النجاح الذى أحرزه جدهم الأول الامام أحمد بن سعيد ضد الحملة الايرانية على سواحل عمان الشمالية .

وطبيعى أن لا يستمرأ العمانيون هذا الاتجاه الدخيل على تقاليدهم وان يروا فى كل نظام يخرج على الامامة التى مارسوها مئات السنين تفتيتا لوحدتهم القومية وافتئاتا على سيادتهم لهذا قابلوا استبداد سعيد بن سلطان واعلان نفسه حاكما مطلقا على عمان بكثير من الاستياء والاستنكار واعتبروه عملا مناقضا لتراثهم الحكمى ومخالفة صريحة لنظمهم المرعية . وعلى أثر ذلك قامت عدة ثورات محلية كتعبير عن رفضهم للنظام السلطانى المطلق واحتجاج عليه ولكن السلطان سعيد أفلح بمعاونة الأسطول والجيش البريطانيين من القضاء

على تلك الثورات والمحافظة على مركزه .

ومصداق لذلك نورد هنا ماذكره السير ارنولد.ت.ولسون في كتابه « الخليج الفارسى » حيث قال —

« انه لولا المساعدة العاجلة التى قدمتها حكومة بومباى بارسالها قطعا من السفن الحربية التى تدخلت بين سلطان مسقط وشعبه الثائر لكان انتهى حكم سعيد منذ ١٨٢٩ » .

ولم يكتف سعيد بن سلطان بكل ما فعله فى مرضاة البريطانيين بل دفعه ولاؤه لبريطانيا الى أن يقدم اليها جزر كوريا موريا الواقعة على الساحل الجنوبى للجزيرة العربية كهدية منه للتاج البريطانى ورمز على اعترافه بالجميل .

وبالرغم من هذه المظاهر التى تعد وصمة عار فى تاريخ هذه العائلة فان الانكليز لم يعاملوا سعيدا الا كواحد من أتباعهم ولم يتورعوا فى سبيل ذلك من أن يستغلوا سخط الرأى العمانى العام ضد السلطان لتدعيم نفوذهم داخل السلطنة كما استغلوا سعيدا نفسه بتحريضه على محاربة الايرانيين والاشتباك معه فى معارك طاحنة أدت الى اضعاف قوة السلطان العسكرية والمالية من جهة وتمهيد الطريق لبسط النفوذ البريطانى على سواحل ايران الجنوبية .

وهكذا أنهكت تلك المعارك قوى السلطان سعيد بينما وجد نفسه من جهة أخرى أمام ثورات محلية أخرى فى ممتلكاته بشرق أفريقية فاتجه الى زنجبار لاخمادها ومكث فيها بقية حياته .

ان هذا الاستعراض التاريخى الوجيز يضع أيدينا على سر المشكلة وهى أن ارتباط عائلة البوسعيد واستسلامهم الأعمى ليس جديدا على الاطلاق . وما اطلاق الحاكم المسقطى يد الانكليز اليوم فى عمان الا امتداد للحلف الثنائى غير المقدس بين حكام البوسعيد والاستعمار البريطانى . ونحن لا نحتاج الى كثير من الذكاء لكى ندرك الصلة العريقة بين هذين العدوين المتحالفين ضد الشعب العمانى . ففصول المؤامرة القديمة العهد كانت تمر أمام أعيننا نحن العمانيين فتثير فينا الألم كما تثير فينا الحقد ضد هذا العدو المشترك .

ان الاستعمار البريطانى هو الشريك الثانى فى هذه المؤامرة البشعة التى كبلت الشعب العمانى وحرمته من أبسط الحقوق السياسية والاجتماعية ، وأن تبجح العسكريين البريطانيين بأنهم انما جاءوا الى عمان لحمايتها من العدوان

الخارجى لحجة واهيــة وستار زائف لا يمــكن أن يخفى الحقيقة المتجلية .

لقد مضى على سلطنة مسقط تحت الحماية البريطانيةزهاء قرنين فماذا حدث خلال هذا القرنين . ان البيان ليعجــز عن أن يرسم صورة صادقة لنكبة هذا الشعب وما يقاسيه من شقاء وحرمان وجهل وتأخر وعبــودية هى النتيجة الطبيعية لسياسة الاستعمار البريطانى وأعوانه فى هــذا القطر . وأن الانسان يحق له أن يتساءل ماذا كانت تفعل هيئة الأمم التى أنيط بها الدفاع عن حقوق الشعوب المستعفة المهضومة . ألم تكن بريطانيا التى كانت تباهى بحمايتها لهــذه البلدان هى المسئولة والمسئولة الوحيدة عن الدمار والتأخر اللذين كانا من نصيب سلطنة مسقط وهى فى عهدتها . ان هذه المأساة التى تخجل الانسانيةوتتحدى أنبل مشاعرهالتنطق عن نفسها ومع ذلك فان هيئة الأمم لم تطالب بريطانيا بتقديم بيان عن حالة هــذه المنطقة من العــالم التى تعيش خلف الســتار الحديدى البريطانى .

ومرة أخرى فان تاريخ الحماية البريطانيــة المزعومة على

سلطنة مسقط تاريخ مسود الصفحات . انهـا مؤامرة ماكرة طويلة لاذلال شعبنا وسحق كيانه واغتصاب حقوقه وعزله عن بقية الأوطان العربية أو ارغامه على النزوح عن بلاده كى يخلو الجو للاستعمار البريطانى وأعوانه الذين يعيشون على امتصاص دماء الشعب ويتنعمون على حسابه .

وبالرغم من هذا الواقع الأليم فاننا نود أن نقرر هنا بأن الاستعماريين الانكليز يخطئون خطأ فاحشا كما هى عادتهم دائما اذا اعتقدوا أنه فى استطاعتهم بهذه الخطة الاجرامية سحق ارادة الشعب العمانى والقضاء عليه . ان هذا الشعب لا يمكن أن يتلاشى من الوجود بالطريقة التى تدبرها حكومة بريطانيـا فالشعور الوطنى قد بدأ يشتعل داخـل الحدود وخارجها وهو يزداد اتقادا يومابعديوم . والعمانيون يؤمنون أن جنود الاستعمار الدخلاء لن يحتلوا بلادهم ويدسنوا اشرفها المجيـد ويكرهون على الانسياق فى تيارهم العـدوانى الى الأبد . وانما هى مرحلة من مراحل تاريخهم كما يدركون فى الوقت نفسه ان زوال هذه الفترة لن يتم الا بالاتحاد والتكتل والمقاومة والنضال المستميت .

ومن حسن حظ عمان أنها لا تقف وحدها اليوم فى وجه العدو المغتصب وأن شعور اخواننا العرب وراءها يشد أزرها ويلهمها الكفاح فى سبيل استرداد حريتها المسلوبة .

مكتب امامة عمان
القاهرة الزمالك ٢٣ شارع حسن صبرى
ت ٨٠٢٢٨٤

مواطن عمانى